ويأخذ على شدة المراقبة في العصر الحميدي انها احدثت اختلالا في طرق التعليم وعمدت الى تشويه دراسة التاريخ والجغرافيا عن طريق الحذف والتبديل . حتى انهم حظروا تعليم العلوم الفلسفية والاجتماعية وقراءتها .

ويطيب لصاحب « عبرة وذكرى »التذكير بمسألتين على جانب كبير من الاهمية والمغزى : أولا ـ العنف والضغط والخطر في ميدان التربية والتعليم من شأنها الافضاء الى نتائج معكوسة قد تولد الانفجار (« وهل فاتهم ان دعاةالثورات والاصلاح في اوروبا كان معظمهم ممن عنى في تربيته على خلاف ما نشأ عليه ؟ » (ص ١٠٦) وثانيا ـ بالنسبة للتعليم الوطني والتعليم الاجنبي في مدارس كل منهما ، ينبه سليمان البستاني الى امر خطير يتعلق باهتمام المدارس الاجنبية في بث روح الوطنية بين تلامذتها ، ويقول جهاراان ارباب هذه المدارس ينتمون الى امم متناظرة ويسعى الواحد منهم جهد طاقته الى استمالة التلامذة العثمانيين الى امته ودولته . ثم يعلن النتيجة التي اسفر عنها التعليم الاجنبي والثمار التي جناها طلاب العلم وأبناء الوطن :

« وهكذا نشأ الطلاب على اختلاف في الافكار والمذاهب ، وهكذا عمل الاجانب بطريق العلم ، على اقتسام عقولنا ، كما عملوا بطريق السياسة على اقتسام بلادنا » .(ص ١٠٧)

(٤)حرية التاليف والقراءة : إذا كانت الدولة العثمانية قد شهدت شيئا من الازدهار على صعيد العلم والتعليم ـ « وإن اتت بالقسر عنه » ـ فان التضييق على الكتابة والكتاب قد اتخذ شكل عدم السماح بنشر الكتب مالم يتم عرضها على « مجلس التفتيش والمعاينة في نفس الاستانة »(ص ١٠٩) . حتى ان مواضيع البحث التي اباحوا التأليف فيها قد خضعت لمواقفة سلطات المراقبة ، « فلم تكن تشمل شيئا من المباحث الاخلاقية والاجتماعية والفلسفية » . والشعر الذي سمح بنظمه وإلقائه هو « ما كان ينفخ منه في نفير التدجيل ويوق التبجيل »(ص ١١٢) . ناهيك عن احراق الكتب الممنوعة والتمتع عن العمل بنصوص قانون المطبوعات .

(٥) حرية الكتابة او البوستة والتلغراف : ازدهرت في البلاد العثمانية مكاتب البريد الاجنبية ، لكن رجال السلطان دأبوا على خرق حرية المراسلة والمكاتبة . فعمدوا الى فتح التحارير وفض الاختام ومراقبة رسائل الاحرار من الناس . وخشية من ان تسهل مكاتب البريد الداخلي على دعاة الاصلاح « حرية التخاطب »لجأوا الى إغلاق تلك المكاتب ثم اعادوا فتحها مشترطين« ان لا تقبل إلا التذاكر المفتوحة » . كما ان الرسائل التلغرافية (البرقيات) المتبادلة بين اوروبا والهند تحولت عن المرور ببغداد (طريقها الطبيعي) الى طريق السويس ، مما افقد السلطنة العثمانية موردا ماليا لا بأس به .

(٦) حرية الجمعيات :والمقصود بذلك إباحة الاجتماع وتشجيع ابناء الوطن على تأليف الجمعيات العلمية والادبية والخيرية :« وهيهات ان يسد الافراد في الاعمال العامة مسد الجماعات »(ص ١٢٥) . لكن رجال الاستبداد عمدوا الى تحريم الجمعيات والاجتماعات لخوفهم من تحولها الى اوكار للمؤامرات السياسية ، مع انها كانت ترمي الى تثقيف العقل وترويض الفكر حتى انه لم يبق في البلاد العثمانية سوى الجمعيات الخيرية الطائفية التي أجازوا تأليفها علما بانه « ليس من شأنها ان تسعى في التأليف بين ابناء البلاد » .

حرية الاصلاح والمصلحين

ويمضي سليمان البستاني في الحديث عن الحرية ورجال الدولة ضمن إطارالمقارنة بين بلاد الحرية وبلاد الاستبداد . فالرجل المصاعد في سلم الارتقاء تزداد الرقابة عليه . ولقد انتشر جواسيس السلطان في كل مكان ، وكثرت الوشايات والسعايات . وكان « زعماء الخفية » انفسهم يخضعون لرقابة خفية اخرى . وكيف يتسنى رجال الدولة في ظل الاستبداد والرقابة ان ينصرفوا الى تحقيق الاصلاح ، متى علمنا قبل كل شيىء ان « كلمة الاصلاح نفسها كانت من الحروف المقضي عليها بالالغاء . إذا نطق بها ناطق اتهم في انه من دعاة الثورة »(١٣٠)

وهناك إسهاب في شرح الاصلاحات والتنظيمات التي أدخلها مدحت باشا اثناء توليه بغداد (١٧٨٠) . لكن مدحت لم يستطع تنفيذ اصلاحاته